مقياس النص الأدبي القديم.س02.د.حياة عمارة

المحاضرة التاسعة: كتابة الترسل

الرسائل فنّ أدبي ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين بعدما بلغت الحضارة العربية الإسلامية قمّة العطاء في مختلف الميادين والمجالات. وهو فن نثري يُظْهِرُ مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمّقة القويّة.

لم تكن الكتابة شائعة بين العرب في الجاهلية، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر لقلّة الدواعي إليها، وإنّما ازدهر عندهم الشعر والخطابة والحكم. وبمجيء الإسلام تغيّرت الحال و ظهرت مفاهيم جديدة لم تكن معروفة من قبل، فقد اتّخذ الرسول- صلى الله عليه وسلم- كُتَّابًا يكتبون له القرآن الكريم، ويكتبون رسائله الّتي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل، وزُعَماء المناطق، وملوك الدول و قد كانت الرسالة أوّل اتّصال بالعالم الخارجي للرسول الكريم و لم يكن لا الشِّعر و لا الخطابة قادرين على أداء الدور العملي الذي تؤديه الرسالة حين تنقل ما يتّصل بسياسة الدولة من مراسيم سياسية أو توجيهات أو تعليمات إدارية ومن هذا التاريخ نافس الكاتبُ الشاعرَ والخطيب وأصبح له منزلة خاصةٌ.

نموذج: رسالة الرسول-صلّى الله عليه وسلّم-إلى ملك الروم

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد: فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّ عليك إثم اليريسيين (المتكبّرين-المتجبّرين).

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بيتكم ألاّ نعبد إلاّ الله و لا نشرك به شيئا، ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّ مسلمون."

و استمرّ تشجيع الخلفاء الراشدين على تعلّم القراءة و الكتابة و اتّخذوا لهم كتّابا هم أيضاً يكتبون إلى الولاة وقادة الجيوش الفاتحة الّتي انتشرت في مختلف الأصقاع لنشر رسالة التّوحيد.

و رسائل صدر الإسلام عموما " غالبًا ما تبدأ بالبسملة ثمّ يأتي بعدها تعابير من قبيل :من محمد رسول الله أو من خليفة رسول الله ،أو من أمير المؤمنين .وقد تبدأ الرسالة باسم الرسول مباشرة مثل :"هذا كتاب من محمّد رسول الله ". وإذا كانت الرسالة موجّهة إلى مسلم فإنَّ خير ما تستهلّ به "سلام الله عليك ".أمّا إذا كانت موجّهة لغير المسلم فإنّ ما تستهلّ به هو "السلام على من اتّبع الهدى" و تأتي

بعد السلام مباشرة التحميدات مثل :"فإني أحمد الله" أو "أحمد إليك الله الّذي لا إله إلا هو ." وقد يرد فيها ذكر التشهد أيضًا أو يكتفي فيها بعبارة : أمّا بعد.

نموذج: رسالة عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– إلى أبي موسى الأشعري حين ولاّه القضاء

"إن القضاء فريضةٌ مُحْكَمة، وسُنَّة مُتَّبَعة، فافهم إذا أُدليَ إليك؛ فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذ له، وآسِ بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيفِك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبيّنة على مَن ادَّعى، واليمين على مَن أنْكَرَ، والصلح جائز بين الناس إلا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالًا، ومَن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بيّنَة، فاضرب له أمدًا ينتهي إليه، فإن جاء ببيّنَة أعطيته بحقِّه، فإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية؛ فإن ذلك أبلَغُ في العذر وأجلى للعمى، ولا يمنعك من قضاءٍ قضيته اليوم فراجعتَ فيه رأيَك، وهُديت لرشدك – أن تراجع الحقَّ؛ فإن الحقَّ قديم لا يُبطل الحقَّ شيءٌ، ومراجعة الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل.

والمسلمون عُدُول بعضهم على بعض في الشهادات، إلا مجلودًا في حَدٍّ، أو مدرك عليه شهادة الزور، أو ظنينًا في ولاء أو قَرابة؛ فإن الله عز وجل تولَّى من العباد السرائر، وسَتَرَ عليهم الحدود إلا بالبيّنات والأيمان.

ثم الفَهمَ الفهمَ فيما أُدلي إليك مما ليس في كتابٍ أو سُنَّة، ثم قايسِ الأمورَ عند ذلك، واعرف الأمثالَ والأشباهَ ثم اعمد إلى أحبها إلى الله فيما ترى وأشبهِها بالحقِّ.

وإياك والغضبَ والقلقَ والضجرَ والتأذِّي بالناس عند الخصومة والتنكُّر؛ فإن القضاء في مَواطِن الحقِّ يُوجب اللهُ به الأجر، ويحسن به الذُّخر، فمَن خلصت نيَّتُه في الحقِّ ولو على نفسه، كفاه اللهُ ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّن لهم بما ليس في قلبه شانه اللهُ تعالى؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان له خالصًا، وما ظنُّك بثوابِ الله في عاجل رِزْقه وخزائنِ رحمته؟ والسلام عليكم ورحمة الله."

و عندما آل الحكم إلى بني أميّة وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطوّر شؤون الدولة الإسلامية؛ أنشأ ديوان الرسائل، وهو ديوان يعنى بشؤون المكاتبات الّتي تصدر عن الخليفة إلى ولاّته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة في بداية الأمر هو الّذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثمّ بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقلّ بكتابة الرسائل، ثمّ يعرضها على الخليفة وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغْلبُ عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنّع كما حدث ذلك لاحقا و شهد فنُّ الكتابة نقلة ً كبيرة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولىّ مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثمّ في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الّذي تولىّ أمر ديوانه عبد الحميد بن يحي الكاتب.

وقد عُرِف عبد الحميد بالبراعة في فنّ الترسّل حتّى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتّى قيل: "بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد."

ومن رسائل عبد الحميد المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الّذي ثار في العراق، ورسالته الّتي وجّهها إلى عمّال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته الّتي وجّهها إلى الكُتَّاب وأصبحت دستورًا لمهنة الكتابة.

نموذج: مقتطفات من رسالة عبد الحميد إلى الكتّاب

أمّا بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإنّ الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين –صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتّاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون...

فإنّ الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم فهيما في موضع الحكم مقداما في موضع الإقدام محجما في موضع الإحجام مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف كتوما للأسرار وفيا عند الشدائد عالما بما يأتي من النوازل يضع الأمور مواضعها والطوارق في أماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعدّ لكلّ أمر عدّته وعتاده ويهيّيء لكلّ وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فإنه حلية...

وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالّذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم ...

فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه، فإنّ ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وعندما قامت الدولة العباسية أخذ خلفاؤها هم الآخرون يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقيهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فنّ الترسل، وازداد التّنافس بينهم بعدما أصبح العمل في ديوان الرسائل مصدر رزق لهم، وغدا التفوّق في فنّ الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليم، بل إنّه غدا مؤهّلاً للوصول إلى منصب الوزارة، من هؤلاء: يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم ممن أوصلتهم هذه الصنعة وهذا الفن إلى ما كانوا يطمحون إليه من نيل لأعلى المناصب فقد كان لا يصل إلى تولّي ديوان الرسائل إلاّ من حسنت سيرته وذاعت شهرته و كان فارس بلاغة و صاحب إتقان و جودة في تدبيج و تطريز الرسائل.

المحاضرة العاشرة: أنواع الرسائل

أ. الترسل الديواني:

تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل، الرسائل الديوانية نسبة إليه، فالخليفة أو الأمير يوجهها إلى ولاته

و عمّاله و قادة جيوشه، بل إلى أعدائه أحيانًا منذرًا متوعّدًا.

و تتنوعّ هذه الرسائل ، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاة، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك. ومن أنواع الرسائل الديوانية أيضا رسائل الجهاد الّتي يوجّهها الخلفاء إلى قوّادهم يكلّفونهم فيها بالغزو ويزيّنون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، واعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية، فكان الكاتب يضمّنها الآيات التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء شأنه، كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب و نعيم في الدارين.

كما كانت مبايعة الخلفاء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل الديوانية، و قد مالت كتب المبايعات إلى الإطناب و التطويل، و يتّصل بهذا اللون من الرسائل ما كتبه كتاب الدواوين في التهاني بما تحقّق من فتوحات و ظفر على أعداء المسلمين، و كان استهلال رسائل التهنئة بالفتوحات سنة متبعة بين الكتاب حتّى لتكاد تقترب في هذه السمة من الخطابة الدينية الّتي تجري على طريقة استخدام التحميدات والإكثار منها.

ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه الكتاب إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون وأحوال الرعية و العمل على استقرار الأمور.

ب- الترسل الإخواني :

وهو الذي يتبادله الإخوان والأصدقاء فيما بينهم في المناسبات المختلفة الخاصّة منها و العامّة كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبّر بها كاتبها عن الشوق و الحنين للأهل و الأصحاب.

تـدور أغلـب موضـوعات الترسّـل الإخـواني حـول الجانـب الإنسـاني ومـا يـرتبط بـه مـن صـداقة وأخـوّة وعواطف نبيلة،

فقـد عـبرّ الكتّـاب في رسـائلهم عـن هـذه العاطفـة الإنسـانية النبيلـة، وأشـادوا بـروابط الإخـاء والمـودّة الّـتي تنعقـد بيـنهم. ومـن الجوانـب الّـتي طرقهـا الترسـل الإخـواني: الشـكر إلى إخـوانهم لمعـروف أسـدوه إلـيهم أو خـير اختصّـوهم بـه أو معـروف أحـاطوهم بـه، كمـا تناولـت موضـوع الاعتـذار باعتبـاره يمثّـل صـورة مـن صـور العلاقـة المتبادلـة بـين الكتّـاب، و طـوّع الكتّـاب الرسـالة الإخوانيـة لموضـوعات أخـرى كالوصـايا و التشـفّع، وكانـت التهـاني مـن الموضـوعات الّـتي شـغلت مسـاحة مـن الرسـائل الإخوانيـة فكثـرت التهـاني بالولايـة وغيرهـا مـن المناسـبات الاجتماعيـة السـارة كـالزواج و الإنجـاب و العـودة مـن السـفر و عكسـت هـذه الرسائل عمق العواطف المتبادلة بين الكتاب.

ج–الوعظية:

وهنـاك رسـائل أخـرى ليسـت ديوانيـة ولا إخوانيـة وإنّمـا هـي رسـائل وعْظيـة، و يقصـد بهـا تلـك الرسـائل الّـتي يكتبهـا بعـض الأتقيـاء إلى الخلفـاء والسـلاطين والأمـراء يحثّـونهم علـى الصـلاح والتقـوى والرأفـة بالرعيـة، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

د–التعليمية:

هـي رسـائل خُصِّصـت للحـديث عـن بعـض الموضـوعات الأدبيـة أو العلميـة أو الدينيـة أو التاريخيـة، وهـذا النـوع مـن الرسـائل يـدخل في باب التـأليف ولا يـدخل في باب الترسـل، ومـن أمثلتـه الرسـالة القشـيرية في التصـوف وبعـض رسـائل أبي العـلاء المعـرّي، مثـل رسـالة الغفـران. وقـد عُـرف هـذا اللـون بالرسـائل الأدبيـة، وكـان الجـاحظ أمـير بيانـه مـن غـير منَـازع. « وتُعَـدُّ رسـالته التربيـع والتـدوير الـتي كتبهـا في هجـاء أحمـد بـن عبـد الوهـاب أشـهر الرسـائل الأدبيـة إذ فتحـت البـاب لمـن جـاء بعـده مـن الكتـاب للإبـداع في هـذا اللـون مـن الترسـل في المشـرق والمغـرب والأنـدلس علـى السّـواء. وهـذا النـوع مـن الرسـائل أشـبه مـا يكـون بالمقـالات في العصـر الحـديث، و فيهـا يتنـاول الكاتـب موضـوعًا خاصًـا أو عامًـا تنـاولاً أدبيًـا، مبنيـا علـى إثارة عواطـف القـارئ و مشـاعره، وهـي لا توجّـه إلى شـخص بذاتـه، و إنّمـا يكتبهـا الكاتـب ليقرأهـا النـاس جميعًا.

البناء الفنّي للرسالة.

أ–الاستفتاح

كانت الرسائل النثرية غالبا ما تستفتح بالبسملة والتحميد والصلاة على رسول الله، أو مبتدئة بالدعاء للمرسل إليه وذكر اسمه وتعداد مناقبه بما يتناسب ومن يكتب إليه، أميرا أو وزيرا أو صديقا، من ذلك قولهم: أطال الله بقاء سيّدي و مولاي الجليل القدر، سماحة الشيخ الجليل حفظه الله ورعاه...

ب- المقدّمة

وفيها يعبّر الكاتب عن عاطفته نحو المرسل إليه إمّا بالدعاء له أو بإقرائه السلام أو غير ذلك ممّا يلائم الموضوع والشخص المكتوب إليه.

ج-المقصد والغاية(الفرض)

و هو جوهر الرسالة، و يتناول ذكر الغرض الرئيس الّذي من أجله وضعت الرسالة، وينبغي غيه عدم الإسهاب و الاقتصار على تفصيل هذا الغرض بالذات.

د-الخاتمة

وبها يختم الكاتب رسالته بطريقة مماثلة لمقدّمة الرسالة، أي بعبارات تؤكّد العواطف والأفكار الّتي جاءت في صلب الرسالة. ومن صور الختام: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، "والله تعالى جعلنا وإيّاكم ممّن شكر النعمة وآثر العمل الصالح"...

ومن آداب الرسالة أن تذيّل بتوقيع المرسل وأن يعيّن فيها تاريخ كتابة الرسالة وأن يذكر عنوان المرسل بوضوح.

شروط الرسالة

أ-البساطة: أي أن تكون الرسالة خالية من التكلّف بعيرة عن الزخرف.

ب-البيان: أي أن تكون عبارات الرسالة واضحة ليس فيها غموض أو إبهام.

ج-الإيجاز: أي عدم الإسراف في القول أو الإسهاب فيه، لأنّ إطالة الرسالة قد يخرج بها عن الغرض الّذي وضعت لأجله.

د-الملاءمة: وتعني مراعاة منزلة المرسل إليه وعلاقته بالمرسل، بحيث يكون أسلوب الرسالة ملائما لمكانة المرسل إليه و درجة معرفته.

هـ-جودة التعبير: و ذلك بأن يكون الأسلوب مشرقا لتنزل الرسالة منزلتها الحسنة غي نفس المرسل إليه.

المحاضرة الحادية عشرة: أدب الرحلة

يعدّ أدب الرحلة من أقدمِ أنواع الأدب المعروفة عند العرب، وقد اهتمّوا بهذا النوع من الأدب اهتماماً واضحاً، فتمّ تسييرُ العديد من الرحلات الاستكشافيّة للتعرفِ على المناطقِ، والبلدان المحيطة بهم، ويعتبر كلٌّ من الإدريسي، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن فضلان، وابن جبير من أشهر الرحّالة العرب الّذين اهتمّوا بتوثيق رحلاتهم، وكتابة القصص الّتي حصلت معهم في الأماكن الّتي ذهبوا لها، ومنهم من اهتمّ بجغرافيّة تلك الأماكن فعمل على رسم الخرائط الّتي تقدّمُ وصفاً للتضاريس الجغرافية الّتي تعرّفوا عليها.

تاريخ أدب الرحلة

يعدُّ القرن السادس الهجري من أكثر القرون العربية والإسلامية الّتي شهدتْ نهوضاً ملحوظاً بأدبِ الرحلة، فقد احتوى على العديد من قصص الرحلات الّتي ألّفها الرحالة العرب ممّن خرجوا من الجزيرة العربية لاكتشاف المناطق المحيطة بهم، أو الّذين كانوا يسافرون من بلاد شمال إفريقيا والأندلس إلى الجزيرة العربية بهدف الحج والتعرّف على الحضارة العربيّة الموجودة في تلك المنطقة. كما شَهِدَ القرن الحادي عشر للهجرة العديد من قصص الرّحلات الّتي تمكّنَ فيها الرحّالة العرب من الوصول إلى الكثير من المناطق الّتي لم يكتشفها أيّ أحدٍ من قبلهم، وأيضاً احتوى على مجموعةٍ من الرحلات الّتي توثّقُ للعديد من الأحداث التاريخيّة المهمّة، ومن أهمّها رحلة أحمد الحجري المعروف باسم أفوقاي الّذي هربَ من الأندلس بعد سقوطها، وقام بتوثيق ما حدث من محاكم تفتيشٍ، والعديد من المشاهدات الأخرى الّتي جمعها في كتابه حول هذه الرحلة.

و عموما فقد نشط وانتشر هذا النوع من الآداب على أيدي المستكشفين والجغرافيين وغيرهم الّذين كان لديهم اهتمام كبير جداً في نقل كلّ ما عاشوه وعايشوه وعاصروه من أحداث ومواقف، وقد بالغوا في بعض الأحيان في وصفهم حتّى وصلوا إلى درجة الخرافة في بعض الأحيان، ممّا يقودنا إلى نوع آخر من أدب الرحلات والذي أصبح بعضها بمثابة أيقونات أدبية تعطي فكرة عامة عن جو الحضارة، فمثلاً هناك السندباد الّذي اشتهر عند العرب، وحي بن يقظان والأوديسا وجلجامش ورسالة الغفران وأبو زيد الهلالي وغيرها الكثير من الملاحم الأدبية، وقد صنفت هذه الحكايات الخيالية على أنّها نوع من أنواع أدب الرحلات لأنّ البطل فيها هو الّذي يذهب ويسافر ويتنقل ويرتحل من مكان إلى آخر.

خصائص أدب الرحلات

يتميّز هذا الفن الأدبي عن غيره من الفنون الأدبيّة الأخرى بوجود مجموعة من الخصائص، وتجلّت هذه الخصائص فيما ورد عن أدباء الرحلات من مؤلّفات كتبوها عند زيارتهم لبعض البلدان، ومن أهمّ هذه الخصائص ما يأتي: *الاعتماد على الحوار .

*استخدام الأسلوب القصصيّ .

*الاعتماد على الوصف بشكل كبير لإيضاح تفاصيل الأماكن الّتي تتمّ زيارتها .

*خلط الجدّ بالهزل وشيوع عنصر الفكاهة في النصوص الأدبية للرحلات.

*تضمين الشعر وبعض آيات القرآن الكريم في نصوص الرحلات ليتمّ من خلالها التأكيد على ما يصفه الكاتب.

و هكذا يمكننا أن نعتبر أدب الرحلة صورة قديمة للقصّة بحيث توجد فيه عناصر أساسية مثل السرد، والحوار، والوصف وغيرها وهو يجمع بين المتعة والفائدة. ووجود النزعة القصصية في أدب الرحلة أمر طبيعي، فالرحلة وما يتخلّلها من حوادث ومواقف تستحثّ الرحّالة على التسجيل، وصياغة هذه الحوادث في أسلوب قصصي يعتمد إثارة التشويق في كثير من الأحيان، فقد جنح بعض الرحالين إلى سرد القصص الّتي عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية، قرّبت الرحلة من عالم القصّة، وإلى جانب السرد نجد حضور الوصف الدقيق والبارع في معظم الرحلات، وهذا الّذي قرّب أدب الرحّالة إلى أسلوب القاص.

ولم يقترب أدب الرحلة من فن القصة فحسب، بل اشتمل على جميع الفنون الأدبية، فكثيرا ما يلجأ الرحّالة إلى الاستشهاد بأبيات شعرية تبرز أدبيته، سواء كانت من نظم الرحّالة نفسه وهذا يثبت قدرته الشعرية والنثرية معا، وأحيانا أخرى يستعين بأبيات غيره ممّا يؤكّد سعة اطّلاعه ودقّة معلوماته. وقد كان بعض الرحالة شعراء فدفعهم ذلك لقوله في المواقف المختلفة أثناء رحلتهم، ولاسيما عند فراقهم لموطنهم، وتوديعهم للأهل والأصحاب، وعند ملاقاة العلماء أو الحنين للوطن وربوعه...

كتب أدب الرحلة

لا شكّ أنّه ما إن يأتي ذكر الرحلة وأدبها حتّى يقفز إلى الذهن اسم أحد روادها وكتّابها العرب الأوائل وهو الرحّالة المغربي الشهير "ابن بطوطة" الّذي يعد أوّل من فتح هذا الباب من الكتابة الأدبية ووضع له خطوطًا عريضة في كتابه الذي سمّاه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" والمعروف باسم "رحلات ابن بطوطة".

وقد ظلّ هذا الكتاب لفترة طويلة أحد مصادر الكتابة العربية في الرحلة، وملهمًا ومحفزًا للكثير من الكتّاب لكي يكتبوا هذ النوع الفريد من الكتابة الأدبية، الّذي يرصد فيه الكاتب خلال رحلاته كلّ غريب وعجيب بين مدن العالم الّتي زارها وتعرّف عليها ناقلاً تلك الخبرات والمعارف لغيره من القرّاء.

كما أنّ هناك العديد من المؤلّفات الّتي تناولت أدب الرحلات، حيث عمد مؤلّفوها إلى ذكر صفات مجموعة من البلدان الّتي زاروها، وتعدّ كتب الأدب الخاصة بالرحلات من المراجع الجغرافية كما أنّها مراجع تاريخية مهمّة، إذ أنّها تصف وبشكل دقيق جداً التفاصيل الّتي عاشها وعاصرها الرحّالة خلال سفره عدا عن الناحية الاجتماعية. ومن هنا أيضاً استمدّت كتب الرحلات متعتها حيث أنّ كلّ من يقرأ كتب الرحلات يشعر بالمتعة الكبيرة وكأنّه عاش في تلك المدينة في تلك الفترة، فهي بمثابة فيلم سينمائي مصوّر تصف بشكل دقيق كافة التفاصيل لاسيما إن امتلك الكاتب أسلوباً أدبياً شيقاً في الكتابة. ومن أهم ّكتب هذا الفن الأدبي ما يأتي:

*عجائب البلدان: لأبي دُلَف الينبوعي (305- 385هـ)

*المعرب عن بعض عجائب المغرب: لأبي حامد الغرناطي (473 - 565هـ)

*عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: (605 - 682هـ)

*خريدة العجائب وفريدة الغرائب: لابن الوردي (المتوفي في 749هـ)

*تحفة النظّار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار: لابن بطوطة (703 - 776هـ).